الشيخ عبد الحميد بن باديس وفكره الإصلاحي

سومية ميعاد
طالبة باحثة بسلك الدكتوراه
مختبر التراث التاريخ والمجتمع فريق البحث علم الأديان وقيم البناء الحضاري
كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق - جامعة الحسن الثاني الدار البيضاء المغرب

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا، و بعد:

فإن حاجة المسلمين لمنهج القرآن والسنة لإصلاح أحوالهم ونيل رضا ربهم ضرورة ملحة، فلن يكون المسلم مسلما بغير معتقد صحيح يدفعه إلى طاعة ربه وعبادته عبادة حق فينصلح القلب وتنقاد الجوارح وفق أمر الله عز وجل، فيكون مسلما حقا يعيش وفق وجهة صحيحة وانتساب صادق للإسلام. قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَاٱلْقُرْءَانَ يَهْدِےلِلتِےهِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُومِنِينَ ٱلذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرا كَبِيرا ﴾ [1]. فالقرآن الكريم هداية كبرى، ومناط عز هذه الأمة وشرفها، فيه خيرها وذكرها وبيان مراشد أولاها وسعادة أخراها ،وهو منهج رباني يؤطر العقل المسلم وفق ما شرعه الله وارتضى لعباده، وبالتالي الشريعة الاسلامية تحث على حفظ نظام الأمة واستدامة صلاحها الذي يشمل صلاح العقل والعمل وصلاح ما بين موجودات العالم الذي تعيش فيه ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْاُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ اُرِيدُ إِلَّا ٱلِاصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِيَ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[2].

[1] سورة الإسراء :9.
[2] سورة هود :88.

فهذه أدلة صريحة دلت على أن مقصد الشريعة الإصلاح وإزالة الفساد، وهذا الإصلاح ليس مجرد صلاح العقيدة لوحدها أوصلاح العبادة فحسب، بل يراد منه صلاح الدين والعقيدة بما ينعكس على أحوال الناس وشؤونهم في الحياة الفردية والاجتماعية.

فإن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [1]،أنبأنا بأن الفساد المحذر منه هو إفساد يطال الانسان والكون وكل موجودات هذا العالم.

وواقع المسلمين اليوم ينبئ عن وجود حاجة وضرورة ماسة إلى الإصلاح وما يتعلق به من قواعد ومناهج لإحياء وتفعيل العمل بمقتضى منهج القرآن والسنة النبوية.

وكان من العناية بهما ما فيه من الفضل العظيم والأجر الجزيل، بذل أسلافنا الكرام جهودا مضنية للتمسك بهما والدعوة إلى ما يزخران به من خير وإصلاح في شؤون حياة المسلم من حيث استقامته مع ربه، ومن حيث استقامة عمله وعبادته وصحة اتجاهه ومنهجه وعقيدته وأخلاقه والحرص على إتباع ما كان عليه سلف الأمة.

وكان لعلماء الغرب الإسلامي دورهم الكبير في الإصلاح الديني، ومن بين أبرز رجالاته الشيخ عبد الحميد بن باديس (ت 1358هـ) الذي كانت له رؤية إصلاحية عملية وفق الكتاب والسنة.

وفي ظل الموجات الاستعمارية التي اكتسحت العالم العربي والإسلامي في العصر الحديث، وبفعل السياسة المنتهجة من طرف الاستعمار من التفقير العلمي والتغريب الحضاري، ومع تصاعد الأزمات المتعددة الجوانب، نشأ رجال في الأقطار المتباعدة، يهدفون إلى التصدي لضربات التجهيل والتفقير والتخلف والتبعية، قاصدين استرجاع الحق المسلوب، والانتعاش الفكري التجديدي.

ظهر العديد من المصلحين، فكان من بين العلماء الذين صبوا عنايتهم واهتمامهم بموضوع الإصلاح: «الشيخ عبد الحميد بن باديس» الذي مثل حلقة من سلسلة ابتدأت ب «جمال الدين الأفغاني» «ومحمد عبده» في القرن التاسع عشر وثنت بـ«رشيد رضا» في القرن العشرين.

كان رحمه الله ثائرا على الجمود، وناقما على الجهل، فأنشأ نهضة إصلاحية هدت عرش الطغيان، وصنم التقليد، وكان متزودا بالقرآن الكريم، مناديا بثلاثية المبدأ: الإسلام ديننا والعربية

[1] سورة البقرة :205.

لغتنا ،والجزائر وطننا، معتمدا التعليم بالمساجد والمكتبات، والصحافة والنادي والجمعية والكشافة، موحدا جميع الجهود.

خطط جيدا لمشروعه الإصلاحي، وحدد ما يقوم عليه من مبادئ وغايات، ولم يترك مجالا من تفاصيل هذا المشروع إلا ووضع له تصورا لإنجازه.

ومن خلال هذه المقالة التي شكلتها من مبحثين، سأتطرق في أولهما الشيخ عبد الحميد بن باديس عصره وحياته وتكوينه العلمي، وفي المبحث الثاني عرضت فكره الإصلاحي وما قام به من إصلاحات.

المبحث الأول: الشيخ عبد الحميد بن باديس: عصره وحياته وعلمه

لمع نجم الإمام عبد الحميد بن باديس وظهر اسمه، لأنه كيّف عمله حسب واقعه وأكب يعمل ويصف البلسم المطابق للوقت والزمان، انطلق من الواقع لينتهي إلى الواقع ذاته.

لذلك عرضت إطلالة على عصر وواقع الإمام عبد الحميد بن باديس، لأن أي جهد يرمي لدراسة موروث تاريخي، أو جهد بشري لن يكون ذا قيمة علمية أو ذا وزن معرفي إلا إذا رجعت بهذا الإرث إلى إطاره الزماني والمكاني، فيضمن لنا صواب ودقة أحكام أو على الأقل يقربنا من الصورة المرجوة.

فما هي الأوضاع التي كانت عليها الجزائر في زمن ابن باديس؟

وما هي العوامل التي أثرت في فكره؟

وما هي البيئة التي عاش فيها؟

وما هي العوامل الثقافية والاجتماعية المؤثرة في بناء شخصية ابن باديس؟

المطلب الأول: الأوضاع والعوامل التي أثرت في فكر ابن باديس

1) الأوضاع السياسية والدينية:

عاشت الجزائر في مرحلة الاستعمار الفرنسي (1830. 1962 م) أخطر أوضاعها السياسية والدينية، عانت فيه أشد المعاناة من التشريد والحبس والقتل ومصادرة الأموال والأراضي فضلا عن محاربة الإسلام والعروبة، وكانت استراتيجية فرنسا ضم الجزائر لها نهائيا وإرسال فرنسيين لها ليكونوا سكان لها بدل أهلها مما دفع أبناء الوطن لمقاومة الاحتلال عسكريا ومدنيا وفكريا.

كانت تحكم الجزائر مباشرة في كل النواحي، فكان الإشراف الديني على المساجد والقضاء والمدارس من حق رجال فرنسيين، فاستحكم في الناس اليأس وفشت بينهم الفرقة والفقر والجهل وشتى أنواع الانحراف، فوجدت الطرقية في هذا حقلا خصبا للتوسع والانتشار.[1]

يقول مالك بن نبي[2]: «هكذا كان الناس يشهدون كل عام موكب القادرية[3] المهيب يأتي إلى آفلو، راية ترفرف وعلى رأسها ابن شيخ الطريقة المقدم، يلبس ثياب الخضراء من رأسه إلى قدمه إنها ثياب أهل الجنة، وهو ذو ذكاء شيطاني يعرف كيف يبتز من السذاجة العامة للناس كما يريد. لقد كان يملك في تلك الفترة في وادي سوف بستانا للنخيل مؤلفا من حوالي ألف نخلة وهو من هبات أولئك الذين يريدون أن يدخلوا الجنة في موكبه»[4]، فبقيت الحالة هكذا تزداد سوءا حتى انتهاء الحرب العالمية الأولى عند ذلك بدأت تظهر بعض الحركات الإصلاحية تنادي بالمساواة بين الشعب الجزائري والمستوطنين في الحقوق ويقولون أن هذه خطوة تمهيدية للاستقلال الكلي ثم الدعوة إلى الالتزام بأحكام الدين الإسلامي واتخاذ التعليم وسيلة للخروج من العجز والاحتكار .

2) الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية:

وصف الشيخ ابن باديس الحالة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الجزائري قائلا: «إلى الإنسان الجزائري إلى حالته العقلية المنحطة، إلى حالته الأخلاقية الفاسدة، بسبب قلة مدارس التعليم والتهذيب الحقيقية والمجازية المفتحة لأبناء الجزائريين، إلى حالته الصحية بسبب قلة وعدم المستشفيات في كثير من القرى والإسعافات الطبية، إلى حالته الاقتصادية بفقد المدارس الفلاحية وعدم الإعانة لصغار الفلاحين[5].

وكذلك الأوضاع الاقتصادية كانت صعبة جدا، فقد كان الشعب في حالة من الجهل والفقر والتفرق والذل والاستعباد يرثى لها الجماد.[6]

---

[1] ينظر: تاريخ الجزائر في القديم والحديث: مبارك الميلي، مكتبة النهضة الجزائر، د/ط، 1964 م، ص 33.

[2] مالك بن نبي: كاتب ومفكر إسلامي، ولد بقسنطينة، درس القضاء والهندسة الميكانيكية، من آثاره: "شروط النهضة" "وجهة العالم الإسلامي "، زار الكثير من الأقطار الغربية والإسلامية، كما تولى إدارة التعليم العالي في الجزائر المستقلة: ينظر أعلام الزركلي 5/266.

[3] القادرية: من الطرق الصوفية المنتشرة في بلاد أفريقيا والبلدان العربية نسبة إلى عبد القادر الجيلاني: دراسات في التصوف لإحسان إلهي ظهير- ص 249.

[4] ينظر: «مذكرات شاهد القرن»: مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية 1404هـ/ 1984م، ص 181.

[5] الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره: عمار الطالبي 5/118.

[6] آثار ابن باديس عمار الطالبي 1/399.

الجهل يؤدي إلى فقدان وسائل الحياة وهذا هو طور انحطاط الأمم الانحطاط التام، وذلك عندما يرتفع منها العلم ويفشو الجهل وتنتشر فيها الفوضى بأنواعها.[1]

وانتشرت الخرافة وهي نعم المعين للمستبدين لأنها تحجب الفكر عن الحقيقة وتحول بينه وبين اليقظة، وحيثما وجد الجهل تحضر الخرافة.

«والجهل الأسود، والفقر المدقع، والظلم الشنيع، والإهمال الفادح، كل ذلك قد حط بكَلاكِلِه على سواء الشعب في كامل البلاد».[2]

العوامل:

1) العامل الأسري:

ينحدر الإمام عبد الحميد بن باديس من أسرة عريقة أصيلة في العلم والجاه والسلطة، ولها باع طويل في العلوم الشرعية بمدينة قسنطينة منذ عصور تعود أصولها إلى الأمير المعز بن باديس الزيري الصنهاجي ت 452 هـ، الذي ثار على الدولة الفاطمية في مصر، وقطع الصلة السياسية والمذهبية معها وألغى المذهب الشيعي وأعاد الاعتبار إلى المذهب المالكي مذهب الأغلبية في ربوع إفريقية والمغرب الأوسط.[3]

وقد وصف الذهبي شخصية المعز بن باديس فقال: وكان ملكا مهيبا وشجاعا عالي الهمة محبا للعلم كثير البدل مدحه الشعراء، وكان مذهب الإمام أبي حنيفة قد كثر بأفريقية، فحمل أهل بلاده على مذهب مالك حسما للخلاف، وكان يرجع إلى الإسلام فخلع طاعة العبيدية* وخطب للقائم بأمر الله العباسي فبعث إليه المستنصر يتهدده فلم يخفه[4].

واستمر المعز رحمه الله في الانفتاح على العامة، والتقرب إلى العلماء والفقهاء من أهل السنة، وواصل السير في تخطيطه للانفصال عن الدولة العبيدية في مصر، وجعل المذهب المالكي هو المذهب الرسمي لدولته. تقلد أفراد الأسرة الباديسية خلال القرن السابع والثامن الهجري

---

[1] آثار ابن باديس عمار الطالبي 1/268.

[2] ينظر: حياة كفاح مذكرات: أحمد توفيق المدني 2/32.

[3] ينظر: البيت الباديسي مسيرة علم ودين وسياسة: عبد العزيز فيلالي، دار الهدى، الجزائر داط،2012م، ص 115.

* الدَّوْلَةُ العُبَيْدِيَّةُ هي إحدى دُوَلِ الخِلافةُ الإسلاميَّة، والوحيدةُ بين دُوَلِ الخِلافةِ التي اتخذت من المذهب الشيعي (ضمن فرعه الإسماعيلي) مذهبًا رسميًّا لها قال الذهبي في العبر في خبر من غبر: "المهدي عبيد الله والد الخلفاء الباطنية العبيدية الفاطمية، افترى أنه من ولد جعفر الصادق (199/2).

[4] سير أعلام النبلاء: 18/140.

العديد من الوظائف السامية في مدينة قسنطينة في جميع المجالات، في الأصول والخطابة والقضاء ...

فقد شغل الإمام مكي بن باديس جد عبد الحميد منصب القضاء وكان معروفا بسعة اطلاعه على علوم الشريعة، وكان شخصية مرموقة تميز بالعلم والسياسة[1].

تعتبر أسرته أهم عامل أثر في تكوينه لأنها تعودت على التقاليد العلمية ودراسة العلوم الدينية وحفظ القرآن الكريم، ولم تسلك إلا منهج العلم والتقوى رغم المناصب العليا.

ويصف محمد البيهي ذلك التأثر والاقتداء، وأثره المباشر على شخصيته وتكوينه فيقول: "ولم يكن ابن باديس امتدادا للتأثير الخارجي وحده، أي الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وغيرهم، فقط في مجال الدعوة والإصلاح، بل كان امتدادا لجده المعز بن باديس الذي توفي عام 984 م وكان له دوره في مقاومة البدع والضلالات التي أدخلت على الإسلام، إذ كان جده يناضل الإسماعيلية الباطنية الشيعية في إفريقية[2].

2) العامل الدراسي:.

تلقى الشيخ عبد الحميد بن باديس المعارف الأولية من والده ثم بدأ مشواره في طلب العلم، وكما هو معلوم فإن الرحلة في طلب العلم أمر شائع عند علماءالمسلمين.

ومن فضائل الارتحال أن الطالب يطوف ببلدان كثيرة، فيشاهد أحوال الشعوب وتقاليدها وعاداتها، واختلاف طبائعها، فيأخذ عن شيوخها وأعيانها، ويتلقى العلم عليهم، مما يؤدي إلى كثرة الاطلاع، ووفرة الثقافة.

والإمام لم يكن بعيدًا عن هذه السنّة الحميدة، وبتشجيع من والده، ارتحل إلى تونس، متتبعًا ينابيع العلم والمعرفة، فأخذ هناك العلم من عظماء الزيتونة.

[1] البيت الباديسي ص 113.

[2] عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية، عبد الحميد درويش النساج، مكتبة الثقافة الديني، مصر، الطبعة الأولى،1431 هـ- 2010 م، ص32.

- رحلته إلى تونس:

إلى جامعة الزيتونة، كانت تلك أولى رحلاته إلى الخارج. تلقى العلم على المبرزين من علمائها، أمثال الشيخ محمد النخلي[1]، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور[2]، وغيرهم، وظل يأخذ عن شيوخه حتى استوفى الكثير مما عندهم من العلوم الإسلامية، طيلة أربع سنوات إلى أن أجازوه للتدريس، فمكث بعد تخرجه سنة أخرى للتدريس فيها، وكانت تلك عادة متبعة في كثير من الجامعات الإسلامية.

ولم يكتف بتلك البرامج التي أهلته لنيل الشهادة العالمية، بل زاد في تحصيله خارج أوقات الدراسة إلى أن تشبّع بمختلف فروع المعارف الإسلامية، وكان لتوجيهات الشيخ النخلي الأثر الكبير في ذلك.

- العودة من تونس:

عاد سنة 1912م إلى الجزائر، وكّله عزم على بعث نهضة علميّة جديدة يكون أساسها الهداية القرآنية والهدي المحمّدي، والتفكير الصحيح، فانتصب يُحْيِي دورس العلم بدروسه الحية في الجامع الكبير بقسنطينة، عائدًا بالأمة المحرومة إلى رياض القرآن وعلومه.

- رحلته إلى المشرق:

وفي موسم الحج لعام 1913م ارتحل إلى الديار المقدسة، وقد تميّزت هذه الرحلة بحدثين هامين، كان لهما الأثر الكبير في توجهه ومستقبل عمله:

الحدث الأول: هو التقاؤه بالشيخ أحمد الهندي، الذي نصحه بالعودة إلى الجزائر وخدمة الإسلام فيها والعربية بقدر الجهد، فحقق الله أمنية ذلك الشيخ بعودة ابن باديس إلى وطنه، وتفانيه في خدمة الدين واللغة، إلى أن تكوّنت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي كان أول رئيس لها، ثم واصل رفاقُ دَرْبِه المسيرةَ من بعده.

[1] محمد أمين النخلي القيرواني (1862-1924م): هو عبد الله محمد أمين النخلي القيرواني، ولد بالقيروان، عرف بشدة تأثره بالشيخ محمد عبده، وعلى يده تخرج أكابر من العلماء كالشيخ محمد الطاهر بن عاشور الذي لازمه ملازمة طويلة. (محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ج5، ط1، الشركة الوطنية التونسية للنشر والتوزيع، بيروت، 1986م، ص 26-27.

[2] ينظر: وثائق جديدة عن حياة ابن باديس الدراسية: عبد العزيز فيلالي، ص21

الحدث الثاني: هو التقاؤه بالشيخ محمد البشير الإبراهيمي[1].

3) العامل الاجتماعي وحب الوطن:

كان له وطنية صادقة اتجاه بلده وشعبه، فذكر من العوامل التي ساهمت في تكوينه وتشجيعه ذلك التفاعل الوجداني والعملي الذي استشعره ولمسه من الأمة المعونة على الخير، المنطوية على أصول الكمال... فكان لها بذلك كله الفضل في تكوينه العلمي ويعتبر الطينة الجزائرية طينة علم وذكاء إذا واتتها الظروف.

إن لأثر البيئة الأسرية والمجتمعية والمدرسية في تربية النشئ فضل عظيم، وكل أمة لا تهتم بهذه المؤثرات الثلاثة في تنشئة أبنائها وتربيتهم وحملهم على مبادئ الدين والقيم والأخلاق الإسلامية، فهي ظالمة لأفرادها والبيئة التي عاش فيها ابن باديس كانت كلها آفات، أتت على كل جوانب الأمة الجزائرية، وقد كان على دراية بكل هذه الملابسات، كما كان يصفها ويشير إليها بدقة مما جعل كل هذه العقبات حوافز وطاقة إيجابية للعمل.

المطلب الثاني: اسمه ونسبه ونشأته وشخصيته

1) اسمه:

هو عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي بن محمد كحول بن علي النوري بن محمد بن محمد بن عبد الرحمان ابن بركات بن عبد الرحمان بن باديس الصنهاجي[2].

2) نسبه:

أسرة ابن باديس مشهورة في شمالي إفريقيا، نبغ فيها عظماء الرجال، وكانت تجمع بين العلم والجاه.. تنحدر هذه الأسرة من العائلة الصنهاجيّة، التي سطع نجمها في ميدان الإمارة والملك بالمغرب الأوسط في القرن الرابع الهجري، كان منها الأمير زيري بن منّاد ابن منقوش، أمير صنهاجة التليّة، ثم ابنه يوسف بن زيري الملقب (بولغين)، الذي استخلفه المعز لدين الله الفاطمي على كامل المغرب بعد ارتحاله إلى مصر . والده هو السيد محمد المصطفى بن مكي بن باديس، حافظ للقرآن

[1] محمد البشير الإبراهيمي (1889-1965 م) الموافق لـ (1306 هـ-1385 هـ) من أعلام الفكر والأدب في العالم العربي، ومن العلماء العاملين في الجزائر هو رفيق النضال للشيخ عبد الحميد ابن باديس في قيادة الحركة الإصلاحية الجزائرية، ونائبه، ثم خليفته في رئاسة جمعية العلماء المسلمين: مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر القديم والحديث، ج1، د ط، المؤسسة الوطنية للكتاب للنشر والتوزيع، الجزائر 1895م، ص28.

[2] ابن باديس حياته ومآثره: عمار الطالبي 1 /74-75

الكريم.. كان يشتغل بالتجارة والفلاحة، يعدّ من أعيان مدينة قسنطينة وسراة أهلها، عُرف بدفاعه عن حقوق المسلمين في الجزائر.. توفي سنة 1951م.

أمّه السيدة زهرة بنت علي ابن جلول، من أسرة اشتهرت بالعلم والتدين[1].

تكوينه العلمي:

- **التدريس:** لقد بدأ ابن باديس التدريس في جامع الزيتونة بعد تخرّجه منه، حيث جرت العادة أن يدرس النبغاء من الطلبة سنة في الجامعة بعد إنهاء دراستهم فيها، وكان ذلك خلال سنة 1911-1912م، وأثناء إقامته بالمدينة المنورة ألقى فيها دروسًا عديدة في المسجد النبوي الشريف.وبعد عودته إلى الجزائر، استأنف الدروس التي كان يلقيها في الجزائر قبل رحلته إلى الحجاز.ولم يكتف بتعليم الكبار في المساجد فحسب، بل كان يهتم أيضًا بالناشئة الصغار، وعن ذلك يقول:(فلما يسرّ الله لي الانتصاب للتعليم سنة 1332هـ، جعلت من جملة دروسي، تعليم صغار الكتاتيب القرآنية بعد خروجهم منها إلى آخر الصبيحة وآخر العشية، فكان ذلك أوّل عهد الناس بتعليم الصغار...).

- **الإفتاء:** بدأ الفتوى مع انتصابه للتدريس، إلا أن هذا الأمر توسع واشتهر عند قيام الصحافة الإصلاحية، فكانت الأسئلة الفقهية ترد عليه من كافة عمالات القطر، فيجيب عليها في صفحات الشهاب، والبصائر.

شيوخه وتلاميذه:

يُرجِع ابنُ باديس الفضلَ في تكوينه العلمي إلى والده، الذي ربّاه تربية صالحة، ووجّهه وجهة سليمة، ورضي له العلم طريقًا يتبعه، ومشربًا يَرِدُهُ، ولم يشغله بغيره من أعباء الحياة، فكفله وحماه من المكاره صغيرًا وكبيرًا.

وكان أول معلّم له هو الشيخ محمد بن المدّاسي، أشهر مقرئي مدينة قسنطينة في زمانه، تلقى عليه القرآن فأتقن حفظه وتجويده.. أما أستاذه الذي علّمه العلم، وخط له مناهج العمل في الحياة، ولم يبخس استعداده حقّه، فهو الشيخ حمدان الونيسي: العالم العارف، الذي استطاع أن ينفذ إلى نفسية تلميذه، فيطبع حياته العلمية والعملية بطابع روحي وأخلاقي لم يفارقه طول حياته.

[1] البيت الباديسي، ص 113.

وقد ظل يذكر تأثير شيخه على نفسيته، فيقول عنه: إنه تجاوز به حد التعليم المعهود من أمثاله، إلى التربية والتثقيف والأخذ باليد إلى الغايات المثلى في الحياة.

وفي جامع الزيتونة أخذ ابن باديس العلم عن المبرزين من الأساتذة والشيوخ، الذين كان لهم بالغ الأثر في تكوينه الفكري واتجاهه الإصلاحي، نذكر منهم على الخصوص:

1- الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: الذي لازمه قرابة الثلاث سنوات، فأخذ عنه الأدب العربي وديوان الحماسة لأبي تمّام، يقول ابن باديس عن ذلك: (وإن أنسى فلا أنسى دروسًا قرأتها من ديوان الحماسة على الأستاذ ابن عاشور، وكانت من أوّل ما قرأت عليه، فقد حبّبتني في الأدب والتفقه في كلام العرب، وبثت فيّ روحًا جديدًا في فهم المنظوم والمنثور، وأحيت مني الشعور بعزّ العروبة والاعتزاز بها كما أعتز بالإسلام)، ولم يمنعه هذا التقدير لشيخه والثناء عليه، من مخالفته وانتقاده في بعض فتاواه.

كان ابن باديس متواضعاً مع تلاميذه، يشجع المجتهدين ويقربّهم أكثر منه، ومن تلاميذه أحمد بوشمال، كان كاتبه المؤتمن على أسراره، وهو الذي تصدي لنشر تفسير ابن باديس في كتاب مستقل بعد أن جرده من مجلة الشهاب التي كان ينشر فيها فواتح من تفسير الإمام التي كان يسميها مجالس التذكير[1]... من آثار الإمام عبد الحميد بن باديس: تفسيره للقرآن الكريم، إلقاءً على طلبته ومريديه، بدأه في ربيع سنة 1332هـ - 1914م، وختمه في ربيع عام 1357هـ - 1938م، ولكنه لم يكتب منه إلا قليلاً، كان ينشرها فواتح لأعداد مجلة الشهاب، ويسمّيها (مجالس التذكير)، وقد جمعت هذه الافتتاحيات بعد وفاته في كتاب تحت عنوان (مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير).

وفاته رحمه الله:

بعد أن أفنى عمره مدرسا يقضي سحابة نهاره وشطرا من ليله خدمة للعلم الشرعي وعلوم اللغة العربية[2]، قال رحمه الله: "وفقنا الله لشكر مامن به من سابق النعمة، والقيام فيما بقي من العمر بواجب، الخدمة وختم لنا باللحوق بعباده الصالحين"[3].

[1] ينظر: عبد الحميد بن باديس: مسار وأفكار، مولود عويمر، إصدارات جسور للنشر والتوزيع 2012، ص62.

[2] ينظر: جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر (1913 . 1940)، عبد الرشيد زروقة، دار الشهاب، بيروت، ط 1، 1420هـ/1999 م، ص272.

[3] آثار ابن باديس: عمار طالبي 3/191.

قال رحمه الله: "مادامت الجزائر مريضة فأنا مريض، وإن شفيت فسوف أشفى"[1]، كان منكرا لذاته في سبيل الأمة الجزائرية.

في مساء يوم الثلاثاء 8 ربيع الأول 1358 الموافق ل 16 أبريل 1940م انطفأ السراج الوهاج الذي أشرق نوره على الجزائر، دفن بقسنطينة[2].

بعد وفاته رحمه الله أدرك أصحابه عظم المسؤولية فكانوا نعم خلف لنعم سلف في إكمال مسيرة الإصلاح والتربية والتعليم.

المبحث الثاني: فكر الشيخ عبد الحميد بن باديس الإصلاحي

شخصية عبد الحميد بن باديس شخصية غنية ثرية فكريا، فهو مجدد ومصلح يدعو إلى نهضة المسلمين ويعلم كيف تكون النهضة فيقول: "إنما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم بالله ورسوله، إذا كانت لهم قوة، وإذا كانت لهم جماعة منظمة تفكر وتدبر وتتشاور وتتأثر، وتنهض لجلب المصلحة ولدفع المضرة، متساندة فى العمل عن فكر وعزيمة."

كان تفكيره في تنظيم يجمع كافة التيارات الإسلامية وجهود العلماء والمصلحين في سبيل خدمة قضية الشعب والوطن الجزائري، ووضع الأطر والخطوات العملية لإخراج الفرنسيين، كان قد بدأ في عام 1331هـ (1913م) حينما التقى الإبراهيمي في المدينة المنورة، ومكثا بها مدة ثلاثة أشهر عمدا خلالها إلى اللقاء كل ليلة بعد صلاة العشاء حتى الفجر يدرسان كيفية القيام بحركة إصلاحية في الجزائر، و قد اتفقا على أسس بعينها شكلت النواة لهذا العمل التنظيمي، ومن ثم استمرت اللقاءات بينهما بعد عودتهما إلي الجزائر في بلدة سطيف حيث يقيم الشيخ الإبراهيمي، وكانت هناك عوامل إقليمية قد أسهمت بدورها في تعزيز الفكرة التي يعمل لها الشيخان، الهم الأكبر المتمثل في الوجود الفرنسي الذي يزداد سوءاً يوماً بعد يوم.

وبروق الأمل كانت تلوح من بلدان عربية وإسلامية كانت تواجه مصيراً مشابهاً ،ومن ذلك دعوة الشيخ محمد عبده الإصلاحية في مصر التي تابعت وتزامنت مع جهود المصلح الديني جمال الدين الأفغاني، بإيقاظ الأمة الإسلامية ببعث الروح الإسلامية والوطنية من خلال جريدة العروة الوثقي، التي كانت منبراً سياسياً دينياً، وملتقى لا يختلف عليه اثنان في حيوية الدور الذي يقوم به من أجل بعث الأمة علي أسس دينية تتوافق وما أراده الله لهذه الأمة من العزة والمنعة، كما للشيخ

[1] المصدر نفسه 2/32.

[2] حياة كفاح مذكرات: توفيق المدني، ص 15.

محمد رشيد رضا بنفس الدور التنويري من خلال جريدته المنار التي أولت للمسألة الإسلامية اهتماماً يفوق ما عداها من القضايا من منطلق قناعة مفادها أن التغيير الأمثل لن يأتي إلا وفق التصور الإسلامي، وكان عبد الحميد بن باديس أشد تأثراً بالشيخ رشيد رضا، ويقول عنه: "فهذه الحركة الدينية الإسلامية الكبرى اليوم في العالم إصلاحاً وهداية وبياناً ودفاعاً كلها من أثاره".

حاول عبد الحميد بن باديس أن يقوم بجهود مماثلة في الجزائر من خلال دروسه الدينية الإرشادية والتعليمية التي انطلقت من مساجد قسنطينة، والجامع الكبير، ومسجد سيدي قموش، والجامع الأخضر، وكانت دروسه تستغرق معظم النهار سوى فترات قصيرة للراحة أو العمل في مكتبه بجريدة الشهاب، يعلم الصغار الذين حرموا من التعليم في المدارس الفرنسية صباحاً، وطلبة المدارس الفرنسية عصراً ليربطهم بعقيدتهم وتراثهم الحضاري، فأصبح الرجل صاحب مدرسة فكرية تعمل لما يرقى المسلم الجزائري ويرفع من شأنه.

أما الوسط الاجتماعي الذي كان يتحرك فيه وسط أمي في معظمه؛ إذ لم تكن قبل المعركة الإصلاحية ولا في وقتها معاهد تعليمية عالية كما هو الشأن في تونس والمغرب ومصر، لذلك كانت حركته مسايرة لطبيعة الوسط، ولم تكن دروسه تقدم المعرفة لذات المعرفة ولم يكن خطابه من أجل إظهار البراعة الأسلوبية إنما كان يخاطب القلب والعقل والوجدان بلغة تحقق المسعى بأسلوب تربوي ينفذ إلى الأعماق.

اتسم خطابه الفكري بالتجديد وبالثورة على المناهج القديمة والتقليدية، وتحديث طرق التعليم والتدريس وإعطاء نظرة للعلوم الإسلامية تتوافق وتغيرات العصر وظروف الواقع المعيش، كان يتنقل عَبْرَ كامل تراب الوطن؛ لنشر الفكر الإصلاحي، وتشجيع الانخراط النوعي في إطار مشروع الحركة.

تميَّز بإدراكه لأهمية التدرُّج في التغيير، وانتهاج إستراتيجيَّة العمل الميداني، وتجديد الفكر؛ لإعداد الإنسان قبل إعداد السلاح.

المطلب الأول: مفهوم الخطاب الإصلاحي عند ابن باديس

كان للشيخ عبد الحميد بن باديس دور جليل في نشأة الخطاب الإصلاحي، بسبب انطلاقته الكبرى والقوية في التعليم وإلقاء الدروس على العامة من الناس، لتوعيتهم بأمور دينهم، ويبرز خطابه في مدى تأثيره ودوره في تأطير المسار الإصلاحي على مستوى الواقع، إذ أن كثيرا من

النصوص ذات الطابع الإصلاحي بقيت حبيسة الأوراق والكتب ولا يمكن تغيير واقع من الجانب النظري وحده، لأنه لا يؤتي أكله ما لم يقترن بالتطبيق.

وعلى العكس تماما من ذلك كان لكتاباته شديد الوقع على المجتمع العربي، وقد تميز خطابه بالبساطة والسهولة، ليكون أنفع وأسرع إلى الأذهان، وأبعد عن الملل والسآمة، وتناول جوانب مختلفة، كالجانب الاعتقادي، والجانب التعبدي، والجانب الاجتماعي، والجانب التعليمي...مع شمولية في الخطاب لمختلف فئات المخاطبين رجالا ونساء، صغارا وكبارا وهو خطاب عملي، حيث كان في الوقت الذي يقدم فيه الدروس التعليمية، يطبقها بيده ويدعو إلى التطبيق الميداني.

فكان خطابه يحمل عدة خصائص في الوقت نفسه، يتميز بالانفتاح والتجديد ويجافي الجمود والانغلاق.

فما مفهوم الخطاب وأهميته في الإصلاح؟ وماهي خصائص ومصادر الخطاب الإصلاحي عند ابن باديس؟

مفهوم الخطاب

الخطاب لغة: الخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبةً وخطاباً، وهما يتخاطبان، وفصل الخطاب: أن يفصل بين الحق والباطل ويميز بين الحكم وضده[1]. وهو " الكلام الذي يقصد به الإفهام، إفهام من هو أهل للفهم، والكلام الذي لا يقصد به إفهام المستمع فإنه لا يسمى خطاباً"[2].

وقد ورد لفظ الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[3].

قوله تعالى: وفَصْلَ الخِطابِ؛ قال: هو أَن يَحْكُم بالبَيِّنة أَو اليَمِين؛ وقيل: معناه أَن يَفْصِلَ بينَ الحَقِّ والبَاطِل، ويُمَيِّزَ بيْن الحُكْمِ وضِدِّهِ؛ وقيلَ فصلُ الخِطَاب أَمّا بَعْدُ؛ وداودُ، عليه السلام، أَوَّلُ من قال: أَمَّا بَعْدُ؛ وقيل: فَصلُ الخِطاب الفِقْهُ في القَضَاء[4].

والخطاب مقرون بالحكمة، وهنا مجال فسيح للتأمل والاستبصار والتدقيق في لفظ "خطاب"، مما يخرج به عن المفهوم اللغوي بحسبانه مراجعةً للكلام، أو الكلام الذي يقصد به

[1] لسان العرب: ابن منظور 1/361 مادة خطب.

[2] الكليات: أبو البقاء الكفَوي طبعة مؤسسة الرسالة، عدنان درويش ومحمد المصري، بيروت، 1992م، ص 419.

[3] سورة ص، 20.

[4] لسان العرب: نفس ص السابقة.

الإفهام، ويرتقي به إلى مستوى أرفع شديد اللصوق بمعنى الحكمة التي هي وضع الأمور في حاقِّ موضعها، وتدبيرها على ما ينبغي لها. ويتلاقى المفهومان اللغوي والقرآني في التأكيد على الدلالة السامية للخطاب، على اعتبار أن "فصل الخطاب" لا يتم على الوجه الأفضل، إلا إذا اقترن بالحكمة، وكان القصد منه تبيان وجه الحق على أكمل الوجوه وأتمها.

الخطاب اصطلاحا:

"توجيه الكلام نحو الغير للإفهام"[1].

الخطاب وأهميته في الإصلاح

لقد أبدى رؤية واضحة ومكتملة في مسألة تجديد الخطاب الإسلامي، حيث شرح أبعاد الوجود الإنساني، والحاجة إلى التواصل الحضاري الممنهج والمثالي، وأذكر مثالا عن ذلك مقاله الشهير المعنون بـ "لمن أعيش؟"[2]، ومما جاء فيه المقتطف التالي: ".. إنني أعيش للإسلام.. إنه دين الإنسانية الذي لا نجاة لها إلا به، وأن خدمتها لا تكون إلا على أصوله، وأن إيصال النفع إليها لا يكون إلا من طريقه.. فإذا عشت له؛ فإنني أعيش للإنسانية لخيرها وسعادتها في جميع أجناسها وأوطانها، وفي جميع مظاهر عاطفتها وتفكيرها، وما كنا لنكون هكذا؛ إلا بالإسلام الذي ندين به، ونعيش له، ونعمل من أجله"[3].

مصادر الخطاب الإصلاحي عند ابن باديس

المسألة الأولى: القرآن والسنة

1) القرآن الكريم

2)السنة

الإصلاح لا يتم إلا وفق سنته صلى الله عليه وسلم، ومن استبعد شيئاً من السنة فإنما استبعد فريقاً لا غنى عنه من قواعد الإصلاح والمرشدات إليه.

يستفتح خطاباته بالحمد والشكر لله تعالى على نعمة العقيدة الإسلامية والقرآن الكريم، والصلاة والسلام على النبي صاحب الرسالة وأكرم الرسل.

[1] كشاف اصطلاحات الفنون: التهانوي: تحقيق: لطفي عبد البديع. الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1972 م، ج2، ص1.

[2] رسالة الشرك ومظاهره مبارك الميلي، ص 4.

[3] الشيخ عبد الحميد بن باديس: فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، رابح تركي، الجزائر: ص 65.

المسألة الثانية: كتب السلف الصالح

منهج السلف الصحيح هو الإسلام كما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم وكما فهمه عنه صحابته رضي الله عنهم، والسلفية الحقة هي الإسلام الحق وتحمل كل صفاته وخصائصه، لأنها تُمَثلُ الطريقة الصحيحة لاستنباط الأحكام من كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

خصائص الخطاب الإصلاحي عند ابن باديس

من خصائص الخطاب الإصلاحي عند ابن باديس:

خاصية الروحية:

الخاصية التى هي في حقيقتها جوهر الإسلام ، وضمان ديمومته على الزمان، وثباته على الأرض، قال الله تعالى ﴿ اللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالۡاَرۡضِۖ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٖۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۗ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَنۡ يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡاَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾.[1]

خاصية التواصل الحضاري:

إن التواصل الحضاري هو الوصل لا القطع بين طرفين أو مجموعة من الأطراف، بحيث يصل كل طرف إلى الطرف الذي يقابله أو يرغب في الاقتراب منه والتعاون معه. وهذا الضرب من التواصل الراقي إنما ينبثق من الإرادة الجماعية والرغبة المتبادلة والإحساس المشترك، باعتباره ضرورة من ضرورات التعايش والتفاهم بين الشعوب. هو سلوك حضاري بالمفهوم العميق للحضارة، والعالم اليوم في أشد الحاجة إلى هذه الأنماط من السلوكات والممارسات المتحضرة، التي من شأنها أن تخفف من أجواء التوتر وتفتح المجال أمام تعزيز التعاون الدولي عن طريق حوار الثقافات وتحالف الحضارات تدعيما للسلام العالمي؛ بهدف تلاقح الثقافات الإنسانية وتحقيقا الاندماج والتناغم الاجتماعي عن طريق تبادل معرفي وتقني.[2]

[1] سورة النور: 35.

[2] شروط النهضة: مالك بن نبي، ص 23.

قال ان باديس: «نحن بحاجة إلى دراسات على درجة كبيرة من العمق لفكرها [الحضارة الغربية] الفلسفي، ولنظرياتها العلمية، ونظمها القانونية والحقوقية، وأنساقها الأخلاقية والاجتماعية»[1].

يمثل خطابه الصياغة النموذجية لتفاعل الأصالة مع المعاصرة، بما يحفظ على الأمة خصوصيتها وذاتيتها دون حرمانها من مكتسبات العصر ومعارفه، «إنما ينفع المجتمع الإنساني ويؤثر في سيره من كان من الشعوب قد شعر بنفسه فنظر إلى ماضيه وحاله ومستقبله؛ فأخذ الأصول الثابتة من الماضي، وأصلح شأنه في الحال، ومد يده لبناء المستقبل؛ يتناول من زمانه وأمم عصره ما يصلح لبنائه، معرضًا عما لا حاجة له به، أو ما لا يناسب شكل بنائه الذي وضعه على مقتضى ذوقه ومصلحته»[2].

خاصية خطاب الوحدة:

الأساس في تصور الوحدة وروحها وسلامة غاياتها في خطابه يحصرها في القرآن والسنة وهدى السلف الصالح؛ إذ ليس هناك من عنصر من عناصر ومكونات خطابه إلا هذه المرجعية.

والخطاب المستعمل لم يكن«الخطاب الذي لا يفهمه كل الناس، ولا الخطاب المادي الذي لا يهم كل الفئات ،وإنما..الخطاب العقلي والروحي (الدين - اللغة - التاريخ - التعليم) الذي لا يستغني عنه أحد في المجتمع»[3]، فكان له بذلك أن يوحد «البلاد فكريًّا وروحيًّا بعد أن مزقها الاستعمار شر ممزق»[4] توجد مسألتين في خطابه: المسألة الأولى : تتعلق بواقع وحدة الأمة العربية والإسلامية: قال رحمه الله: "الاتحاد الإسلامي والوحدة العربية بالمعنى الروحي والمعنى الأدبي والمعنى الأخوي هما موجودان، تزول الجبال ولا يزولان، بل هما في ازدياد دائم بقدر ما يشاهد الناس من عمل في الغرب ضد العروبة والإسلام. وأما بالمعنى السياسي والمعنى العملي فلا وجود إلى اليوم لهما"[3]. ثم يضع ترتيبًا ضروريًّا لانعقاد الوحدة على المستويين المعنوي الأدبي والسياسي العملي على حد تعبيره. وقد عالج هذه القضية في الدائرتين العربية والإسلامية، فخلص إلى وجود الوحدة بالمعنى الشعوري الأدبي، وانعدام الثانية واقعيًّا .أما المسألة الثانية: الصلة بين «العرب» و«الأمازيغ»، في ذلك التصوير الجميل بين الجنسين في هذه الأرض من بلاد الإسلام ،وكيف جمع

[1] آثار ابن باديس، ج3، ص 9.
[2] آثار ابن باديس، ج 4، ص 17.
[3] آثار ابن باديس، ج 5، ص 131-132.
[4] المصدر نفسه، ج5: ص 103-104.

بينهم الإسلام في آصرة وادعة متينة، فجاء في مقاله « ما جمعته يد الله لا تفرقه يد الشيطان»، فقال: « إن أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضع عشرة قرنًا، ثم دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدة والرخاء، وتؤلف بينهم في العسر واليسر وتوحدهم في السراء والضراء، حتى كونت منهم منذ أحقاب بعيدة عنصرا مسلما جزائريا، أمه الجزائر وأبوه الإسلام. وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشرف لإعلاء كلمة الله، وما أسالوا من محابرهم في مجالس الدرس لخدمة العلم»[1].

المطلب الثاني: الإصلاحات التي قام بها الشيخ ابن باديس

بدأت جهود ابن باديس الإصلاحية مشتتة بجهود فردية، تميزت بالنشاط الديني والتربوي، ثم تطورت لتصبح حركة وطنية بعد الحرب العالمية على يده وطائفة من العلماء، ثم تقوّت فأضحت ممثلة في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

ثم استعان بأدوات العصر لإبلاغ دعوته، وفي مقدمتها الصحافة التي اتخذها أداة لبيان المفاهيم الإسلامية الصحيحة وانتقاد الأوضاع القائمة الّتي تخالف أحكام الكتاب والسنة.

وكانت جهوده في المجالات الدينية والتعليمية والتربوية والاجتماعية وكان يملك رؤية إنسانية حميمة تدافع عن كرامة الإنسان وحقوقه، بحيث طرح مجموعة من الأفكار والطروحات المهمة التي تستحق التأمل والتفكير والتحليل.

ولقد نال الإصلاح العقدي الحظ الأوفر من جهود ابن باديس وأعماله، وأهم مظاهر هذا الإصلاح في جوانبه المنهجية:

المنهج الذي دعا إلى اعتماده، وهو المنهج الذي كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وهو بناء العقائد على الكتاب والسنة، والتحاكم في مسائل الخلاف إلى ما كان عليه سلف الأمة وأخيارها، وله كتابا في التوحيد سماه العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، جسد فيه نظرته الإصلاحية في علم العقائد.

[1] المصدر نفسه: ج5: ص 459.

أولا: القرآن والسنة المرجع في العقيدة

القرآن

فقال رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا القرآن مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: 30]... ونحن. معشر المسلمين. قد كان منَّا للقرآن العظيم هجر كثير في الزمن الطويل - وإن كنا به مؤمنين - بسط القرآن عقائد الإيمان كلها بأدلتها العقلية القريبة القاطعة، فهجرناها وقلنا تلك أدلة سمعية لا تحصل اليقين، فأخذنا في الطرائق الكلامية المعقدة وإشكالاتها المتعددة واصطلاحاتها المحدثة مما يصعب أمره على الطلبة فضلاً عن العامة.

ووضع القرآن الكريم منهجًا للتربية العقلية، ومن أهم نقاط هذا المنهج:

1- تجريد العقل من المسلَّمات المبنيَّة على الظنِّ والتخمين، أو التبعية والتقليد؛

2- إلزام العقل بالتحرِّي والتثبُّت؛

3- دعوة العقل إلى التدبُّر والتأمُّل في نواميس الكون؛

4- دعوة العقل إلى التأمل في حكْمة ما شرع الله؛

5- دعوة العقل إلى النَّظر إلى سُنَّة الله في الناس عبْرَ التاريخ البشري؛ ليتَّعظ الناظر في تاريخ الآباء والأجداد والأسلاف، ويتأمَّل في سنن الله في الأمم والشعوب والدول.

ويصف الإمام ابن باديس الناس في الحياة الدنيا بصفتين حارث وهمام أي عامل ومريد.

السنة

المصدر الثاني وهو السنة النبوية الشريفة، القولية والفعلية والتقريرية، وهو المصدر الشارح والمبين والمفصِّل لما جاء في المصدر الأول، ولقد كان. رحمه الله. كثير الاحتفاء بالسنة النبوية الشريفة شديد الدعوة إلى والتمسك بها والتعويل عليها في فهم الدين فهماً صحيحاً بعيداً عن تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

ثانيا: الاحتكام إلى السلف والالتزام بفهومهم

الالتزام بمفهومهم لنصوص الكتاب والسنة، وهذا ما قرره ابن باديس.

قصد إلى إصلاح عقائد الناس وأخلاقهم وأفكارهم، فعني بمصادر التلقي لأنها مدخل الأهواء والبدع، وحصرها في كتاب الله وسنة رسوله وإجماع السلف الصالح، فسعى إلى بيان الحق وإنكار

البدع والحث على تعلم العقيدة الصحيحة وكتابة المقالات والدعوة إلى المشاركة في الإصلاح ومناصحة أصحاب العقائد الفاسدة.

أما التفسير، فقد تصدّر هو بنفسه لتفسير كتاب الله العزيز الحكيم، وأما الحديث فمن (موطأ الإمام مالك)، والفقه من (أقرب المسالك)، و(رسالة ابن عاشر)، والعربية من (قَطْرِ النَّدَى)، والشعر من (ديوان الحماسة وديوان المتنبي)، إضافة إلى تدريس (مقدّمة ابن خلدون)، وتعليم الطلبة بعض الصنائع اليدوية.

تعلم اللغات الأجنبية: اعتبر تعلمها من الدين، مستندا إلى حديث زيد بن ثابت المتعلق بتعلم كتاب يهود، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم زيدا بتعلم السريانية كما ورد في البخاري وذلك ليتسنى لنا دراسة العلوم العصرية والاستفادة من المدنية الغربية، وألح بالنسبة الجزائريين على تعلم اللغة الفرنسية بحكم العلاقة بيننا وبين فرنسا.

مقاومة التغريب: وقد كان الشيخ ابن باديس على أتم اليقظة والوعي بفقه الولاء للأمة العربية الإسلامية، والبراء من خصومها الحضاريين من الغربيين وبخاصة الفرنسيين، وقد مارس كل ذلك بنهج حكيم متوازن بعيد عن التنطع والغلو، وما فتئ يردد قوله: "إنه لا يقف ضد المدنية أو الحضارة العصرية الغربية، لكنه يدعو إلى أن يتمدن الجزائريون بشروطهم هم لا بشروط فرنسا، وأن يتمتعوا بحريتهم واستقلالهم وأن تتوقف فرنسا عن استقلالهم"[1]. وعندما بلغت الدسائس الفرنسية ذُروتها في بدايات أيام الحرب العالمية الثانية، التي اتجهت فيها فرنسا إلى تجنيد الجزائريين في جيشها ليخوضوا معاركها ضد الألمان؛ وقف الشيخ ابن باديس وقفة قوية صارمة، وانتقد علماء الدين الذين أجازوا للمواطنين الجزائريين ذلك الصنيع. وحينها فاه ابن باديس بكلمته المشهورة: "لو طلبت مني فرنسا أن أقول لا إله إلا الله لما قلتها"[2].

إصلاحاته الدينية: درّس ابن باديس في مساجد كثيرة بقسنطينة كالجامع الكبير والأخضر وسيدي عبد المؤمن ومدرسة جمعية التربية التعليم، وأول عمل تربوي لابن باديس في قسنطينة كان في سنة 1332 هـ 1913 /م، حيث أسس مع جماعة من الفضلاء مكتبا للتعليم الابتدائي في مسجد سيدي بومعزة ثم انتقل إلى بناية الجمعية الخيرية الإسلامية التي تأسست في 1917م، وفي 1930 م تطور هذا المكتب إلى مدرسة جمعية التربية والتعليم الإسلامية التي حرر ابن باديس

[1] عيون البصائر: محمد البشير الإبراهيمي 19 .20، القاهرة، 1963.

[2] ابن باديس وعروبة الجزائر، محمد الميلي، (ص 63-65).

قانونها الأساسي وقدمه باسمها إلى الحكومة فصادقت عليه في مارس 1931م، واعترفت بالجمعية في الجريدة الرسمية .

إصلاحاته التربوية والتعليمية: حرص ابن باديس على صياغة القيم والفضائل الأخلاقية في صورة منهجية وفق قواعد عامة معروفة، ثم في صورة نداءات ووصايا يمكن أن تتحول إلى قالب تربوي إرشادي يسهل التعريف به.ويعتبرالتعليم أساس الإصلاح، وصلاحَ العلماء شرط لكل تغيير حضاري " لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم(...) ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم (...) ولن يصلح هذا التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله وموضوعه في مادته وصورته".

خاتمة

لقد مكنت هذه الدراسة حول الفكر الإصلاحي عند ابن باديس أَن أَخلصها إلى جملة من النقاط لعل أهمها:

دعوة الإمام عبد الحميد بن باديس رغم كل المثبطات والعقبات، في إحياء الإسلام في الجزائر، ونشر اللغة العربية، وغرس الروح الوطنية، وزرع بذور ثورة التحرير.

نجحت خطّة الإصلاح التي رسمها عبد الحميد بن باديس ونفذها بصبر وأناة إذ استطاع أن يعزل المتورطين مع الاستعمار الفرنسي، فبدأ بالطرق الصوفية التي أراد في أول الأمر أن يستخلص العناصر السليمة فيها، فلما حاربته بدأ يعزلها عن الشعب فلما لجأت إلى المستعمر أظهرها بمظهر الخيانة فقدت سلطاتها على الشعب.

ربط العقيدة بالواقع، وأعاد صياغة العقيدة لتقوم بدورها في تربية الأمة، وزرع محبة الله - ومحبة لقائه، والشوق لما أعده لأهل طاعته في جنات النعيم، وزرع الخوف منه تعالى ومن عقابه.

أقر على أن قوة العلم وقوة العمل من الأسباب التي ينبغي الأخذ بها ، ليكون المصلح أهلًا للدفاع عن الحق وحزبه، مقيما لسلطان الله في أرضه بالحق والعدل والإحسان، معتمدا مع تحصيل تلك الأسباب على الله وحده ومنتظرا منه الفرج والتيسير.

جعل العقيدة المحور الأساسي في خطابه الإصلاحي الدعوي، من حيث المضمون ومن حيث الشكل، فقام بصياغة الدرس العقدي صياغة على ضوء الكتاب والسنة، ودعا إلى تصحيح اعتقاد الناس.

وأكد على أن الإنسان المسلم ينبغي أن يبلغ درجة اليقين في العقيدة، وأن يعمق هذا اليقين بالنظر في آيات الله الشرعية والكونية، وأن هذا النظر يكون على الطريقة القرآنية.

دعا إلى ضرورة الاهتمام بإعداد المعلم الصالح، القوي في دينه وتكوينه، لأن إنجاح العملية التربوية، يتوقّف إلى حد كبير على وجود المربّي، الذي يحقّق بسلوكه وممارساته التربوية المثال الصادق لأهداف المنهج التربوي المراد إقامته وتحقيقه.

والسؤال الذي يطرح نفسه ماذا فعل أحفاد ابن باديس من بعده؟ هل استمروا في حمل مشعل العلم والإيمان لنقل الجزائر من التخلف والحرمان إلى المجد والحضارة والتقدم؟ هل المعاهد والجامعات قامت بالدور الريادي لتطوير المجتمع؟ هل استمرت على منهجية ابن باديس، أو قامت بتطويرها بمراعاة التطورات العلمية والاجتماعية والاقتصادية الحالية ؟

لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم رواية ورش العد المدني الأخير.
- الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، تحقيق محمد الدين الخطيب المكتبة السلفية، القاهرة الطبعة الأولى، 1400 هـ
- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، 852 هـ، مكتبة دار الطبعة الاولى 1410هـ / 1989 هـ
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير 774 هـ، صححه لجنة من الأساتذة والمتخصصين بإشراف الناشر دار قتيبة.
- سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت ط 2، 1402 هـ1982م.
- لسان العرب، ابن منظور دار المعارف، القاهرة د/ط/ت.
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، تحقيق حسين نصار، مطبعة حكومة الكويت، ط 2، 1269 هـ1960م.
- تهذيب اللغة: أبو منصور الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب الناشر، دار إحياء التراث
- العربي - بيروت الطبعة الأولى، 2001م.
- التعريفات: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: 816 هـ) تحقيق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية بيروت -لبنان الطبعة: الأولى 1403هـ - 1983م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: 1270هـ) المحقق: علي عبد الباري عطية الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى، 1415 هـ
- -مجموع الفتاوى: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: 728هـ) تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة: 1416هـ/1995م.
- آثار ابن باديس إعداد وتصنيف عمار طالبي، دار الأمة، الجزائر د/ط، 2009م.

- تاريخ الجزائر في القديم والحديث مبارك الميلي، مكتبة النهضة الجزائر، د/ط ،1964م.
- ابن باديس وعروبة الجزائر مبارك الميلي، وزارة الثقافة الجزائر د/ط 2007م.
- موسوعة كفاح الشعوب، كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي: سيرة عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العلمية والإصلاحية لعلي محمد الصلابي دار المعرفة بيروت الطبعة الأولى 2017م.
- عيون البصائر من آثار الشيخ البشير الإبراهيمي الجزائري الطبعة الأولى، 1997 دار الغرب الإسلامي بيروت - لبنان.
- البيت الباديسي مسيرة علم ودين وسياسية، عبد العزيز فيلالي، دار الهدى، الجزائر د/ط 2014 م.
- البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار الغرب الإسلامي، بيروت الطبعة الأولى 1427 هـ 2006 م.
- العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، لابن باديس، تحقيق محمد الحسن فضلاء دار البعث، الجزائر طبعة الأولى، 1406 هـ 1985م.
- مجالس التذكير من حديث البشير النذير لابن باديس، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، طبعة الأولى 1403 هـ-1983 م.
- جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر (1913 .1940)، عبد الرشيد زروقة، دار الشهاب، بيروت، ط 1، 1420 هـ/ 1999 م
- الإسلام والإصلاح والإنسان: أحمد سلام، دار ابن حزم د/ط، 2006م.
- عبد الحميد بن باديس: مسار وأفكار، للدكتور مولود عويمر إصدارات جسور للنشر والتوزيع 2012.